16 - السيدة أم ورقة بنت نوفل

الأنصارية حافظة القرآن

اسمها أم ورقة، والدها عبد الله بن الحارث بن عويمر بن نوفل، وقيل لها: أم ورقة بنت نوفل، نسبة إلى جدها الأكبر.

تعد أم ورقة ﵂ من أعلام نساء الأنصار، وكانت صوَّامة، قوَّامة، حافظة لكتاب الله الكريم، وهي من فواضل النساء في عصرها، وكان رسول الله ﷺ يزورها كثيراً مع بعض أصحابه ﵃، وكان إذا أراد زيارتها يقول لهم: **«انْطَلِقُوا بِنَا نَزُورُ الشَّهِيدَةَ»**، وليست هذه المكرمة الوحيدة التي خصَّ بها رسول الله ﷺ أم ورقة، فلما استأذنته في أن يجعل لها مؤذناً خاصاً، فعل، وتمَّ الفضل حين أذن لها بأن تؤمَّ جماعة النساء في بيتها، وهذا شرفٌ كبير خصها بها دون غيرها، وتقدير لم تُحظَ به امرأة سواها.

قَالَ: وَكَانَتْ قَدْ قَرَأَتْ الْقُرْآنَ، فَاسْتَأْذَنَتْ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ تَتَّخِذَ فِي دَارِهَا مُؤَذِّناً، فَأَذِنَ لَهَا.

حَدَّثَ الْحَسَنُ بْنُ حَمَّادٍ الْحَضْرَمِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ، عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ جُمَيْعٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَلاَدٍ، عَنْ أُمِّ وَرَقَةَ بِنْتِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ - ﵂ قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَزُورُهَا فِي بَيْتِهَا، وَجَعَلَ لَهَا مُؤَذِّناً يُؤَذِّنُ لَهَا، وَأَمَرَهَا أَنْ تَؤُمَّ أَهْلَ دَارِهَا، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: فَأَنَا رَأَيْتُ مُؤَذِّنَهَا شَيْخاً كَبِيراً[1].

---

(1) رواه: أبو داود/ كتاب: الصلاة/ باب: إمامة النساء/ برقم: (500).

كانت أم ورقة من الذاكرات الله كثيراً، ومن التاليات لكتاب الله حق تلاوته، ومن المتدبرات العاملات بأحكامه.

تمنيها الشهادة

وحين أجمعت قريش أمرها، وعقدت عزمها على قتال المسلمين في بدر، خرج منادي رسول الله ﷺ يدعو المسلمين جميعاً إلى جهاد المشركين، عملاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: 73]، ولبّى المسلمون النداء زرافاتٍ ووحداناً، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ شاكي السلاح متأهبين، طامعين بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، وفي كُلٍّ خير!

وجاءت إليه أم ورقة تريد أن تنفذ قول الله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: 41].

حَدَّثَ الْوَلِيْدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُمَيْعٍ قَالَ: حَدَّثَتْنِي جَدَّتِي، وَعَبْدُ الرَّحْمَن بْنُ خَلادٍ الأَنْصَارِيُّ عَنْ أُمِّ وَرَقَةَ بِنْتِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ: أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ يَزُورُهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، وَأَنَّهَا قَالَتْ يَوْمَ بَدْرٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَتَأْذَنُ فَأَخْرُجُ مَعَكَ، أُمَرِّضُ مَرْضَاكُمْ، وَأُدَاوِي جَرْحَاكُمْ، لَعَلَّ اللهَ يُهْدِي لِي شَهَادَةً قَالَ: **«قَرِّي، فَإِنَّ اللهَ ﷻ يُهْدِي لَكِ شَهَادَةً**[1].

وفي رواية أبو داود عَنْ أُمِّ وَرَقَةَ بِنْتِ عَبْدِ اللهِ بْنِ نَوْفَلٍ الأَنْصَارِيَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا غَزَا بَدْراً قَالَتْ: قُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي فِي الْغَزْوِ مَعَكَ، أُمَرِّضُ مَرْضَاكُمْ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنِي شَهَادَةً قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«قَرِّي**

(1) رواه: أحمد/كتاب: من مسند القبائل/باب: حديث أو ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصاري/برقم: (26022).

فِي بَيْتِكِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَرْزُقُكِ الشَّهَادَةَ»، قَالَ: فَكَانَتْ بَعْدَ ذَلِكَ تُسَمَّى: الشَّهِيدَةُ»[1].

لقد أمرها رسول الله ﷺ أن تبقى في بيتها فما عساها أن تفعل؟ لقد سمعت وأطاعت، إنها حافظة القرآن، والقرآن يقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾ [النساء: 80].

وعادت أم ورقة إلى بيتها، ودخلت في محرابها، وراحت تدعو المسلمين، أن يمنَّ عليهم بالنصر المبين، ولما حضرت الصلاة دعا مؤذنها النسوة لصلاة الجماعة في بيت أم ورقة، فتبادرن إليها عَجِلاتٍ، حتى إذا قُضيت الصلاة رفعت أم ورقة يديها إلى الله ضارعة تدعوه بخشوعٍ، والنسوة يؤمِّنَّ على دعائها.

وعلى أرض بدرٍ كان رسول الله ﷺ يدعو ربه ويستنجزه وعده له بالنصر المبين، واستجاب الله تعالى دعاء نبيه ﷺ، واستجاب دعاء أم ورقة المؤمنة التَّقيَّة، رطبة اللسان بذكر الله، الوفية بعهد ربها، المخلصة لدينها ولرسولها ﷺ، المحبة للخير في الأقوال والأفعال، والناهية عن الشر في سائر الأحوال.

وأخذت سيوف الإيمان تحصد رؤوس الشرك والضلال، وزلزلت قريش في بدر زلزالاً شديداً، وكان يوماً على الكافرين عسيراً، لم تغب شمسه حتى استقرَّت رؤوس زعمائها، وجثث سفهائها في قعر القليب، ولقي أبو جهلٍ، وعقبة بن أبي معيط، وابنا ربيعة عتبة وشيبة، وأُميَّة بن خلف شراً مستطيراً جزاء ما أساؤوا إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم: 47].

وعاد رسول الله ﷺ بجند الله من بدر، وهم يهللون ويكبرون،

(1) رواه: أبو داود/ كتاب: الصلاة/ باب: إمامة النساء/ برقم: (500).

وأكاليل الغار فوق جباههم، ورايات النصر قد عانقت السماء، وفقدت قريش يومئذٍ سبعين سفيهاً، وأُسر لها سبعون، وكان أكثر ما آلمها أنها لم تستطع حمل أحد من قتلاها، ولا سيما زعماؤها وكبراؤها، لتدفنهم في مكة، لأن أمر رسول الله ﷺ بإلقائهم في بئر بدر حالَ دون ذلك.

وكان سرور أم ورقة بانتصار المسلمين غامراً، وانطلق لسانها بالشكر لله تعالى على إنجاز وعده بنصر المؤمنين، وراحت تستمطر الرحمات على الشهداء، وتنتظر وعد رسول الله ﷺ لها بالشهادة، فإن شوقها لم رزقوا الشهادة لشديد.

أهل القرآن أصحاب الليل

ونظرت أم ورقة في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ۝٧٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩﴾ [الإسراء: 78، 79]، فوجدت فيه فوائد يعزُّ حصرها، وعزمت على ألاَّ تفوتها نفحاتها، وجعلت تقوم الليل، وترفع صوتها بالقرآن، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يمر ببابها وهو ذاهبٌ إلى صلاة الفجر، فيُسرُّ بسماع تلاوتها، ويقول: هذا صوت خالتي أم ورقة! فهنيئاً لك قيامك، وتهجُّدك، وتلاوتك أيتها المؤمنة التقية، وأبشري بجزاء ربك الذي لا يضيع أجراً، ولا يغمط حقاً، ولا يظلم أحداً، لقد بيَّن لك هذا الجزاء حين قال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۢ ۝٥٥﴾ [القمر: 54، 55].

ويعود عمر ﷺ من المسجد، ويسمع صوت أم ورقة وهو ما يزال يترنَّم بآي الذكر الحكيم، وما تنفك أم ورقة مقيمة على هذا الحال، دون كللٍ أو مللٍ.

وقال لها بعض الصحابة الذين كانوا يزورونها مع رسول الله ﷺ: أتدرين من أنت يا أم ورقة؟ وماذا يقول عنك رسول الله ﷺ؟ قالت: لا، بالله عليكم أنبئوني ماذا يقول عني رسول الله ﷺ؟ فقالوا: قال: «**هَيَّا بِنَا إِلَى بَيْتِ**

الشَّهِيدَةِ»، وتطيب نفسها بما تسمع، وتسعد أعماقها بذلك، وترى كأنَّ الدنيا قد باتت ملك يمينها.

ولقد أدَّت تلاوة القرآن الكثيرة إلى صقل نفسها ومَلْءِ قلبها بالرحمة والرقة والحنان، فكانت تُغدق منها على من تعرف ومن لا تعرف ممن يدخل عليها من المهاجرات والأنصاريات لحضور الصلاة ومجالس الفقه التي كانت تديرها لهؤلاء المؤمنات.

تحقق البشارة واستشهادها

وإزاء هذه المهام الملقاة على عاتق أم ورقة كان لا بد لها أن تستعين بمن يخدمها، ويساعدها في تأمين خدمات البيت وأعبائه، وجاءت أم ورقة بغلام وجاريةٍ لهذا الغرض، وجرت الأمور على أحسن ما يرام، فأم ورقة تنفق عليهما وتكرمهما، وهما يؤدِّيان واجباتهما كما ينبغي لها أن تؤدَّى، ولكن كما قال الشاعر السموءل:

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

وكما قال المتنبي:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيْمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيْمَ تَمَرَّدَا

ولكن من كان يصدق، بل من كان يتخيل، أن امرأة وديعة تقية، تحب الخير لكل الناس، صوَّامة، قوَّامة، حافظة لكتاب الله، عطوفة، شفوقة، يمكن أن تكون غرضاً لجريمة شنعاء يدبِّرها ضدَّها الغلام والجارية اللذين أحسنت إليهما، إلى درجة يزهقان فيها روحها الطاهرة، ويسكتان في صدرها الحياة؟

لا شكَّ أن اللؤم الذي جُبلا عليه هو الذي دفعهما إلى ارتكاب ما ارتكبا دون وازعٍ من دين، ففازت أم ورقة بما وُعدت به من الشهادة على لسان رسول الله ﷺ، وأمَّا هما فقد باءا بسخطٍ من الله، ولهم في الآخرة عذابٌ أليم، لقد أفسدا عليها دنياها حين سلباها حياتها، بيد أنها أفسدت عليهما آخرتهما حين دفعت بهما - بما كسبا - إلى جهنَّم وبئس المصير.

وتوضَّأ عمر بن الخطَّاب ﷺ، وجهَّز نفسه ليخرج إلى صلاة الفجر كما يفعل كلَّ يوم، ومرَّ بباب أم ورقة، فلم يسمع صوت تلاوتها، وأصاخ سمعه فلم يجد لها حِسّاً، وكرَّر التنصت فلم يَحْظَ بطائل، وارتاب عمر أمام هذا الواقع، وحُقَّ له أن يرتاب، لقد عوَّدته أم ورقة على سماع قراءتها عند الفجر، فما بالها اليوم قد تغيَّر حالها، وتخلَّت عمَّا دأبت عليه؟.

وحثَّ عمر خطاه إلى المسجد، وعجَّل في صلاته، ودهش الصحابة ﷺ لما رأوا من قلقه، فابتدرهم بالحديث قبل أن يسألوه عمَّا يشغله، فقال: ما سمعت قراءة خالتي أم ورقة آنفاً، وأرى أن في الأمر شيئاً، فهلمُّوا معي إلى دارها، لنستطلع الخبر اليقين.

ولما وصلوا إلى الدار أقبل عمر على الباب وراح يناديها: يا خالتي أم ورقة، أين أنت؟، ولكن ما من مجيب، واشتد قلق عمر وأصحابه ﷺ، وكرر نداءه لها، ولما لم يجبه أحد، رأوا أنه لا بُدَّ لهم من اقتحام الباب، ونفذوا ذلك في الحال، ثم تفرقوا داخل الدار، كُلٌّ يفتش عن أم ورقة في جانب، ولم يطل بحثهم حتى وجدوا جثَّةً ملفوفةً بقطيفةٍ من القماش في إحدى زوايا المنزل، ولما حسروا عن وجهها علموا أنها أم ورقة وقد فارقت الحياة، وصُعق عمر ﷺ لذلك المشهد، وذُهل الصحابة لما رأوه.

أفي ظل إمام العدل، الذي يضرب التاريخ بعدالته المثل تُرتكب مثل هذه الجريمة الشنعاء، ومع أرقِّ قلبٍ بين النساء؟ مسكينةٌ أنت يا خالة! وويلٌ للجناة الآثمين الذين نزعت الرحمة من قلوبهم حين أسكتوا أنفاسك!!.

وشقَّ على عمر ﷺ ما نزل بأم ورقة وحزَّت في نفسه تلك النهاية الأليمة التي انتهت إليها إمامة النساء، ودُفن هذا المنصب معها فلم تفز به امرأة بعدها، ولكن حزن عمر سرعان ما تبدَّد، فقد ذكر بشارة رسول الله ﷺ لها بالشهادة، فقال من فوره: صدق الله وصدق رسوله ﷺ حين كان يقول: **«انْطَلِقُوا نَزُورُ الشَّهِيدَةَ!!»**، وكفى بأم ورقة فضلاً أن يروي عنها عمر بن الخطاب ﷺ حديث رسول الله ﷺ.

وأوعز عمر بتجهيزها، وتكفينها ثم الصلاة عليها، ومواراتها، وبادر إلى المسجد فأخبر الناس بما لقيته أم ورقة، ثم أمر أن يؤتى بالغلام والجارية، فلما أُحضرا أمامه، أقرَّا بفعلتهما المنكرة، فأمر عمر ﷺ بصلبهما، فكانا أول مصلوبين على باب المدينة، ليكونا عبرة لمن تسوِّل له نفسه أن يعتدي على حياة المسلمين، روى الإمام أحمد عَنِ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُمَيْعٍ قَالَ: حَدَّثَتْنِي جَدَّتِي، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَلادٍ الأَنْصَارِيُّ أَنَّ أُمَّ وَرَقَةَ كَانَتْ أَعْتَقَتْ جَارِيَةً لَهَا وَغُلامًا عَنْ دُبُرٍ مِنْهَا، فَطَالَ عَلَيْهِمَا، فَغَمَّاهَا فِي الْقَطِيفَةِ حَتَّى مَاتَتْ وَهَرَبَا، فَأَتَى عُمَرُ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ أُمَّ وَرَقَةَ قَدْ قَتَلَهَا غُلامُهَا وَجَارِيَتُهَا وَهَرَبَا فَقَامَ عُمَرُ فِي النَّاسِ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَزُورُ أُمَّ وَرَقَةَ، يَقُولُ: «انْطَلِقُوا نَزُورُ الشَّهِيدَةَ»، وَإِنَّ فُلانَةَ جَارِيَتَهَا وَفُلانًا غُلامَهَا غَمَّاهَا ثُمَّ هَرَبَا، فَلا يُؤْوِيهِمَا أَحَدٌ، وَمَنْ وَجَدَهُمَا فَلْيَأْتِ بِهِمَا فَأُتِيَ بِهِمَا، فَصُلِبَا، فَكَانَا أَوَّلَ مَصْلُوبَيْنِ[1].

وفي رواية أبي داود قَالَ: وَكَانَتْ أُمُّ وَرَقَةَ قَدْ دَبَّرَتْ غُلامًا لَهَا وَجَارِيَةً، فَقَامَا إِلَيْهَا بِاللَّيْلِ، فَغَمَّاهَا بِقَطِيفَةٍ لَهَا، حَتَّى مَاتَتْ وَذَهَبَا، فَأَصْبَحَ عُمَرُ ﷺ فَقَامَ فِي النَّاسِ فَقَالَ: مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْ هَذَيْنِ عِلْمٌ - أَوْ مَنْ رَآهُمَا - فَلْيَجِئْ بِهِمَا فَأَمَرَ بِهِمَا، فَصُلِبَا، فَكَانَا أَوَّلَ مَصْلُوبٍ بِالْمَدِينَةِ[2].

وبكى الصحابة ﷺ فقد أم ورقة، وأخذوا يسترجعون، ثم هنَّأوها بالشهادة، وما أعدَّ الله لها في مستقر رحمته، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: 100].

رحم الله أم ورقة، وأحسن نزلها، ورضي عنها.

---

(1) رواه: أحمد/ كتاب: من مسند القبائل/ باب: حديث أو ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصاري/ برقم: (26022).

(2) رواه: أبو داود/ كتاب: الصلاة/ باب: إمامة النساء/ برقم: (500).